الفصل الرابع

نقد الميتافيزيقا

في الفلسفة الوضعية

تمهيد

أثار التفكير الميتافيزيقى – من قديم الزمان – موجة من النقد والشك والسخرية، بدأت بأصحاب مذهب الشك Scepticism [1] الذين هاجموا جميع الفلسفات الدوجماطيقية (أى الفلسفات التى زعمت أنها قد كشفت النقاب عن الحقيقة) كما عبرت عن نفسها عند "أرسطو" و"الرواقية" و"الأبيقورية". فأنكر "بيرون" Pyrrhon (365 – 275 B. C.) (مؤسس المذهب) أن يكون للمعرفة الحسية أو للمعرفة العقلية أدنى قيمة فى إيصالنا إلى معرفة حقائق الأشياء. والنظر العقلى والإدراك الحسى لا يستطيع كلاهما إلا أن يخدعنا دائماً، فنحن لا ندرك من الأشياء – فى الواقع – إلا ما يبدو لنا؛ فكل شىء فى الخارج هو بالنسبة إلى الذات المدركة مظهر فحسب. أما طبيعة الشىء فى ذاته فلا سبيل للوصول إلى معرفة كنهها [2].

ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يتوصل إلى يقين من خلال إدراكه للأشياء، فما عليه إلا أن يتوقف عن الحكم، أو أن يعلق حكمه عليها. والسبب فى تعليق الحكم عند "بيرون" ومدرسته هو أن الإنسان إذا ما حكم على شىء ما، فإنه يستطيع – فى اللحظة نفسها – أن يحكم على الشىء نفسه بضده. وإذا كان لكل رأى ما يعارضه وبالقوة نفسها، فلكى يخرج الإنسان من هذا التناقض المستمر، فما عليه إلا أن يتوقف عن إصدار الأحكام [3].

وفى العصور الوسطى، كان توجيه النقد العلني للتفكير الميتافيزيقى – الذى ارتضته الكنيسة تأييداً للعقيدة المسيحية – أمراً محرماً. ومع ذلك ظهرت نزعات قوية وخفية معادية للتفكير الميتافيزيقى – فى هذا العصر – وإن خشي أصحابها أن يعرف أمرهم فينالهم عذاب أليم. أما فى الفكر الإسلامى، فقد ظهر من مفكري العرب من هاجم الفلسفة و"الميتافيزيقا" من

غير هوادة، وقوضي الأسس التى قامت عليها ونذكر منهم: "الإمام الغزالي" (1058 – 1111) الذى اضطلع فى كتابه "تهافت الفلاسفة" بتفنيد مزاعمهم وإبطال دعاويهم وإثبات ضعف عقيدتهم، وقد قصد – من وراء هذا كله – أن يبين عدم الوفاق بين الفلسفة والدين [4].

وتصدى لنقد التفكير الميتافيزيقى وهدمه – فى العصر الحديث – أصحاب الفلسفات الواقعية والحسية ممن أنكروا الاهتمام بالعقل كأداة لمعرفة الحقيقة ومن بينهم نجد "هيوم"، الذى قصر موضوع العلم على ما تمدنا به التجربة وما يخضع للملاحظة. كان همه دراسة الظواهر البشرية مثلما تدرس ظواهر الطبيعة دون أن يتضمن هذا التصور الوضعى لعلم الإنسان – ولو تضمناً غير مباشر – حلاً لأي مسألة من المسائل الميتافيزيقية. ولقد ذهب إلى أن دراسة أى شيء أخر غير الظواهر الإنسانية يعنى التخلى عن فكرة علم للطبيعة البشرية على النمط النيوتونى [نسبة إلى نيوتن] والارتداد إلى التصور التقليدى للفلاسفة، وهو الذى أدى إلى نتائج غاية في البطلان[5].

وفى نهاية القرن التاسع عشر، شنت الوضعية الفرنسية ومؤسسها "أوجست كونت" Auguste Conte (1789 – 1857) حملة عنيفة على "الميتافيزيقا" واستبعادتها من نطاق البحث بحجة أنها عقيمة غير نافعة، كما أنها تمثل مرحلة من مراحل التفكير انقضى عهدها. وقد تطور هذا المذهب على يد أتباع "الوضعية المنطقية" Logical Positivism الذين أنكروا القضايا الميتافيزيقية بحجة أنها لا تشير إلى مدلول حسي فى دنيا الواقع، وأنها مجرد كلام لا يحمل معنى .

هيوم ونقد الميتافيزيقا

الحق أن مذهب "هيوم" وحدة متسقة تنم عن نظرة واعية متعمقة للطبيعة البشرية، ويصقل هذه النظرة منهج متسق، حاول فيه الفيلسوف أن يبنى علماً جديداً واضح المعالم سليم البنيان، هو علم الطبيعة البشرية، ولتحقيق هذا الهدف، كان لابد أن ينقد أصول الطبيعة البشرية نقداً تحليلياً يبين فيه انطباعات تجاربنا.

استهل "هيوم" فلسفته بالدعوة إلى المنهج العلمى، وهو المنهج الذى يلزم باتخاذ الملاحظة والتجربة أساساً له. ولكننا نراه يقر – بوضوح – بأن الخيال قوة مبدعة يدعوها "هيوم" بـ "تلقائية الذهن". وإلى هذه التلقائية الفضل فى ربط أمور الواقع بروابط وثيقة تحقق للمعرفة أصولاً راسخة يستند إليها علمنا بالواقع، وتمكن للعاطفة من أن تؤدى دورها الإنسانى فى الربط بين المشاعر، التى لا مفر لنا من إقرار حقيقتها، وبين الأهداف الاجتماعية التى تتطلب إيثار الغير على النفس. ومن ذلك نرى التعاطف فى مجال العمل يؤدى الدور نفسه الذى يؤديه الاعتقاد فى مجال النظر [6].

هذه هى الفكرة الأصلية التى نفذ منها "هيوم" إلى مجال الأخلاق والتى تربط برباط وثيق بين جانبي النظر والعمل فى فلسفته وتجعلهما ينبثقان من معين واحد لا ينضب وهو معين العواطف والمشاعر والأحاسيس .

ولكن لم يقتصر "هيوم" على الاهتمام بالإحساسات والانطباعات والأفكار على النحو الذى عرضها فى كتابه "رسالة فى الطبيعة البشرية" وإنما دعا إلى أتباع منهجاً يرد كل فكرة إلى الانطباع الذى استمدت منه. وقد استعاض عن العقل الخالص الذى يتشبث به العقليون بملكة ابتكارية،

وابتكارها – كما يرى – ليس خلقاً وإنما تشكيلاً لمادة مستمدة أصلاً من الإحساس. هذه الملكة هى التى تمكن للاعتقاد من ترسيخ العلاقات وتثبيتها من ناحية، وتمكن للعاطفة من إرساء العلاقات البشرية على أركان وثيقة ودعامات متينة .

لقد شق "هيوم" طريقاً جديداً فى مجال الفلسفة أيقظ عملاق الفلسفة الحديثة "كانط" من سباته فهو القائل عن "هيوم" :-

"إنني لأعترف صادقاً أن ما استذكرته من تعليم "ديفيد هيوم" كان هو على وجه التحديد العامل الذى أحدث – منذ أعوام كثيرة – أول هزة أيقظتني من سبات جمودي الاعتقادى، ووجه أبحاثي فى مجال الفلسفة التأملية وجهة جديدة" .

تحليل المعرفة

ذهب "هيوم" إلى أن العناصر التى تتألف منها معرفتنا كلها هى "الإدراكات" التى تتلقاها عقولنا وننفعل بها. فقسم "الإدراكات" إلى قسمين:- "الانطباعات" Impressions و"الأفكار" Ideas. وكلاهما فى نظره من نوع واحد، وكل الفرق بينهما هو فى درجة القوة التى تؤثر بها كل منهما فى العقل. فالانطباعات أقوى فى العقل أثراً وأوضح ظهوراً، أما الأفكار فهى الصور الباهتة لهذه الانطباعات. ولا يمكن أن تنشأ فى العقول أفكار إلا إذا سبقتها انطباعات. إذن، فالانطباعات هى المرجع الوحيد الذى نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها. ويقول هيوم:

"كل الإدراكات الحسية للعقل الإنسانى تنحل بذاتها إلى نوعين يتميز إحداهما عن الآخر وسوف أطلق عليهما اسم "الانطباعات"

و"الأفكار" ... ويندرج تحت الانطباعات كل إحساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا كما تظهر لأول وهلة فى النفس. أما الأفكار فأعنى بها ما يكونه التفكير والعقل من صور لتلك الإحساسات والعواطف والانفعالات" (7).

ويميز "هيوم" بين نوعين من "الإدراكات": الإدراكات البسيطة والإدراكات المركبة. فالبسيطة هى التى لا تقبل القسمة أو الانفصال. أما المركبة فهى التى تنقسم إلى أجزاء، فمثلاً: إدراكنا "التفاحة" يشمل مجموعة من الصفات الخاصة بلونها وملمسها ورائحتها وهذه الصفات لا تختلط ونستطيع دائماً أن نميز الواحدة من الأخرى. لذلك فكل إدراكاتنا لها وجهان: بوصفها انطباعات حسية وبوصفها أفكاراً. على سبيل المثال :

عندما أغمض عينى وأفكر فى حجرة، فإن أفكاري عنها تكون تمثلات للإدراكات الحسية التي كنت أحس بها. وإذا استعرضت إدراكاتى الأخرى فإنني أجد دائماً التشابه نفسه والتمثل نفسه. إذن فهناك توافق بين الأفكار والانطباعات الحسية (8).

والحق أن الأمر يختلف بالنسبة للإدراكات المركبة، فالأفكار المركبة لا تطابقها انطباعات حسية. وفى هذا الصدد يقول "هيوم" :

"من الممكن أن أتصور مدينة قدس جديدة New Jerusalem جدرانها من ذهب وأحجارها من ياقوت. علماً بأنني لم أر شيئاً مثل ذلك. ولكن إذا كنت رأيت "باريس" فهل من الممكن أن تكون عندى فكرة عن هذه المدينة تمثلها بكل شوارعها وبيوتها بشكلها وحجمها" (9).

ومن الإدراكات المركبة ما يؤكد ارتباط الأفكار بالانطباعات الحسية ومنها ما ينفيه. والأمر يبدو أكثر وضوحاً بالنسبة للإدراكات البسيطة. حيث

يرى "هيوم" أن كل فكرة بسيطة يجب أن يسبقها انطباع حسي، بينما العكس ليس صحيحاً. وبالتالى فإننا نستطيع أن نقول إن الانطباعات الحسية هى علة الأفكار، بينما الأفكار لا يمكن أن تكون سبباً للانطباعات الحسية. ولكن هناك تجربة أخرى يشير إليها "هيوم" بقوله:

"فلنفرض أن هناك شخصاً قد عرف مجموعة الألوان بدرجاتها المختلفة، باستثناء درجة خاصة من "اللون الأزرق" لم تتح له فرصة رؤيتها. فماذا يحدث عندما يصادفها. هل يستطيع بخياله وحده أن يكون لنفسه فكرة خاصة عن هذه الدرجة من اللون الأزرق؟ يعتقد البعض أنه لا يستطيع ذلك. ومن ثم فإن الأفكار البسيطة لا تشتق دائماً من الانطباعات الحسية المطابقة. وبجانب هذا الاستثناء الذى يمكن أن يحدث لقاعدة سبق الانطباع الحسى على الفكرة، فإننا يجب أن نضع حدوداً أخرى لهذه القاعدة وهى أن الإنسان يمكن أن يكون أفكاراً ثانوية من الأفكار الأولى. ومعنى هذا أن أفكارنا البسيطة تنتج عن الانطباعات الحسية على نحو مباشر أو غير مباشر" (10).

هذا هو – فى نظر "هيوم" – المبدأ الأول والأساسي الذى تقوم عليه الطبيعة البشرية، وهذا المبدأ ينفى ما كان يتردد بين المفكرين من وجود أفكار فطرية فى العقل، ويؤكد أن كل الأفكار تأتى إلينا عن طريق الإحساس والتفكير .

نقد جوهرية النفس

حاول "هيوم" الكشف عن المقدمة الأولى التى بنى عليها الميتافيزيقيون أوهامهم حول النفس الإنسانية، والتى تعتبر نقطة الانطلاق بالنسبة لكل براهينهم. وقد وجد أنها تتمثل فى "خبرة الشعور بالذات"،

فالإنسان يشعر دائماً بذاته أو نفسه شعوراً لا يشوبه أدنى شك، وهذا الشعور ليس بحاجة إلى دليل أو برهان؛ لأن النفس التى يشعر بها الإنسان هى أساس كل إحساس أو إدراك أو انفعال أو عاطفة. فهى النواة التى تتعاقب عليها كل تلك الحالات المتغيرة، لذلك لا يمكن الشك فى وجودها لأنه لو حدث مثل هذا الشك لما كان هناك شىء يمكن أن نحكم عليه بأنه يقيني؛ فهى أكثر الأشياء التى تدخل فى حيز يقينا وهى أيضاً أقرب الأشياء إلينا. ولا يكتفي هؤلاء الميتافيزيقيون – كما يرى "هيوم" – بالتأكيد على وجودها، بل يتحدثون أيضاً عن طبيعتها، فهى – عندهم – ذات هوية تامة وهذه الهوية بسيطة، ومن ثم فهى خالدة [11].

ولا يختلف "كانط" عن "هيوم" فى تأكيده على أن خبرة الشعور بالذات أو "الأنا" هى المقدمة الأساسية التى بُنى عليها علم النفس العقلى – الذى يدعى أنه قادر على معرفة الطبيعة المطلقة للنفس دون الاستعانة بأية تجربة باطنة أو خارجية – هذه المقدمة التى استنبط منها الميتافيزيقيون كل النتائج المتعلقة بجوهرية النفس [12]. وقد رأى "كانط" أن الشعور بالذات فكرة لا تشير إلى كائن موجود هو "نفسى"، وإنما فكرة تعبر عن الشرط الضرورى لحصول المعرفة؛ فموضوعات المعرفة تحتاج إلى ذات تعرف تلك الموضوعات .

وبناء على ذلك، فإذا لم تكن النفس جوهراً، فلا يمكن القول عنها أنها بسيطة ولكي يقال عن شىء ما أنه جوهر بسيط يلزم أولاً أن يكون جوهراً. وإن لم تكن النفس جوهرية – وبالتالى ليست بسيطة – فإنها منطقياً ليست خالدة .

الميتافيزيقا عند الوضعية التقليدية

نشأت الفلسفة الوضعية التى تزعمها "أوجست كونت" [13] فى عصر سيطر عليه ومهد له حادث اجتماعي عظيم وهو "الثورة الفرنسية" تلك الثورة التى قال عنها "كونت":

"إنه لولاها لما أصبح من الممكن الوصول إلى نظرية التقدم"، بعبارة أخرى لولاها لما وصلنا إلى علم الاجتماع ولا أصبحت الفلسفة الوضعية سهلة القبول" [14].

هذه الثورة أثارت حركة قوية بعيدة المدى فى الأفكار وفى الفلسفة النظرية والسياسية، وتطلع المفكرون إلى البحث عن النظام الذى يجب أن يقوم بعد الثورة وعلى أنقاضها. وشعر "كونت" بضرورة إعادة تنظيم المجتمع من جديد، بل وجوب هدم العقائد والآراء السائدة عن المجتمع وظواهره – تلك العقائد التى لا يمكن البرهنة عليها – وأن تقوم على أنقاضها مجموعة منظمة من العقائد والآراء التى يستطيع العقل أن يدركها ويفسرها. لأن العقائد التى كانت سائدة – فى تلك الفترة – لا يمكن شرحها وفهمها إلا بالرجوع إلى نظريات ميتافيزيقية جوفاء عن العالم وعن الإنسان، كما عرضها رجال الدين وبعض الفلاسفة. لكن العقل لا يقنع بهذه التفسيرات لأنه خطا خطوات واسعة نحو التفكير الوضعى، وكان عليه أن يضع – بعد أن تطور – فكرة القانون العلمى موضع القوى الخارقة للعادة؛ وأن يضع العلم الوضعى موضع التفكير الميتافيزيقى. كما كان عليه أن يُحد من دائرة التفكير المطلق الذى يقوم على الخيال، فيصبح التفكير نسبياً مؤسساً على الملاحظة التى يستطيع العقل البشرى أن يعللها [15].

أطوار التفكير الإنسانى

يقول "كونت" فى مقدمة كتابه: "دروس فى الفلسفة الوضعية" The Course of Positive Philosophy .

"إن الفلسفة الوضعية حققت العمومية والكلية التى كانت تنقصها، وأصبح التفكير الوضعى قادراً على أن يحل محل التفكير الميتافيزيقى فى تفسير العالم وما يشمله من الظواهر المختلفة" [16].

وفى خاتمة الكتاب يقول:

"إن خلق هذا العالم واكتشافه يحقق الوحدة الضرورية للفلسفة الحديثة التى يجب أن تكون فلسفة مغايرة للفلسفة الميتافيزيقية، فهى فلسفة يجب أن تكون وضعية" [17].

وقد ظهر هذا العلم إلى الوجود باكتشاف "كونت" قانون [18] الأطوار الثلاثة، فاكتشاف علم الطبيعة البشرية مرتبط باكتشاف قانون الحالات الثلاثة للتفكير، بل إن اكتشاف هذا القانون هو الذى أوحى إلى "كونت" بفكرة وضع علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية .

يعلن "كونت" عن ظهور هذا القانون بقوله :

"فى كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية نجد أن العقل الإنسانى بطبيعته يخضع بالضرورة فى سيره للمرور بثلاثة أطوار نظرية مختلفة ومتتابعة: الأولى هو الطور اللاهوتى (أو الخيالى) The Theological Stage. والثانى هو الطور الميتافيزيقى (أو التجريدي) The Metaphysical or Abstract Stage، أما الطور الثالث والأخير هو العلمى أو الوضعى The Positive Stage " [19].

وفى الطور اللاهوتى، كان الوعى البشرى – فى لحظته الطفولية – خاضعاً للتفكير الخيالى (الميثولوجى) شأن الطفل الصغير الذى يفهم ما يحدث أمامه من ظواهر بنسبتها إلى قوى شخصية مريدة، وكان الاعتقاد السائد أن الطبيعة تسيرها كائنات مفارقة تختفى وراء الطبيعة المرئية كالآلهة والشياطين. وفى الطور الميتافيزيقى، يظل العقل الإنسانى يبحث عن كنه الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يرتقى فيتخلى عن الكائنات السامية غير المرئية؛ ويرد الظواهر إلى علل مجردة خفية يتوهمها فى باطن الأشياء وهى معانى مجردة تسمى الماهيات أو الجواهر. وهنا يرى "كونت" أن الوعى الإنسانى انتهج منهج العقل بدلاً من الخيال الذى كان آلية التفكير المهيمنة فى المرحلة السابقة [20].

أما الطور الوضعى (أو العلمى) فهو طور النضوج العقلى أو مرحلة كشف القانون العلمى. وفيه يذهب العقل عند تفسيره للظواهر إلى القوانين التى تحكمها وتنظمها، فبدلاً من إرادة الآلهة أو القوى الميتافيزيقية؛ أصبح القانون العلمى هو محور البحث، وبدلاً من البحث المطلق اللامحدود أضحى البحث خاصاً بطائفة معينة من الظواهر حتى يطمئن العقل فى الوصول إلى حقيقتها [21].

والنقطة الجوهرية التى استند إليها "كونت" فى دراسته للأطوار الثلاثة، هى أن دراسة الوظائف العقلية الخاصة بالإنسان لا تصير وضعية ولا تصلح أن تكون موضوعاً للبحث الوضعى إلا إذا درست من وجهة نظر تاريخية واجتماعية. وهذا هو السبب فى أن اكتشاف قانون الأطوار الثلاثة كان حادثاً عظيم الأهمية، لأنه فتح ميدان البحث العلمى؛ ووضع أول حجر فى بناء فلسفة وضعية تدرس الإنسانية دراسة علمية وصفية تحليلية .

الميتافيزيقا عند الوضعية المنطقية

عارض "كونت" العقائد السائدة، وأخذ على عاتقه تصنيف شامل لكل العلوم، بادئاً بالرياضيات ومنتهياً إلى علم الاجتماع. وذهب – فى معارضته للتفكير الميتافيزيقى – إلى ضرورة البدء بما هو معطى مباشر فى التجربة والامتناع عن محاولة تجاوز الظواهر. وقد مهد "كونت" بعلمه الوضعى هذا لظهور ما يسمى بـ "الوضعية المنطقية" Logical Positivism [22] التى بدأت مع "مورتس شليك" Moritz Schilck (1882 – 1936) الذى شغل كرسي الفلسفة بجامعة "ڤيينا" The Vienna Circle [23].

وقد بدأ الجيل الأول من الوضعيين الموجودين فى "ڤيينا" عملهم تحت تأثير "أرنست ماخ" Ernst Mach (1838 – 1916) [أول من تولى تدريس فلسفة العلوم فى جامعة ڤيينا عام 1901] ثم خلفه "لودڤيج بولتزمان" Ludwig Boltzmann (1844 – 1906). وقد تمسك أعضاء الجماعة – منذ البداية – بالفكرة القائلة إن نظرية المعرفة ما هى إلا دراسة منطقية للغة المعبرة عن نتائج العلم، وترتب على هذا التحليل المنطقى للغة العلم نتيجة مؤداها أن قضايا "الميتافيزيقا" فارغة المعنى ولا تقول شيئاً [24].

ويمكن أن نتبين وجود ثلاثة روافد أثرت فى نشأة هذه الحركة الفلسفية:

أولاً: تأثرت بالفلسفتين التجريبية والوضعية السابقتين عليها، وبصفة خاصة عند "هيوم" و"جون ستيوارت مل" John Stuart Mill (1806 – 1873) و"هنرى بوانكاريه" Henri Poincarê (1854 – 1912). إلا أنها تختلف عن الفلسفة التجريبية التقليدية، فى أنها أرادت أن تعيد بناء المنطق، لا برده إلى التجربة – كما فعل "مل" – وإنما بالتعرف على

حقيقته. ومن هذا المنطلق، حاولت – هذه الحركة – أن تـربط التـراث التجريبى بالتطور الجديد فى المنطق .

ثانياً: تأثرت الوضعية المنطقية بعلم المناهج الخاص بالعلم التجريبى، كما تطور على يد العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر من أمثال "أرنست ماخ" و"هنرى بوانكاريـه" و"ألبـرت أينـشتين" Albert Einstein (1879 – 1955). كما تأثرت – أخيراً – بالمنطق الرمزي والتحليل المنطقى للغة، كما تطور عند كل مـن "جوتلـوب فريجـه" Gottlob Frege (1848 – 1925) و"برتراند رسل" Bertrand Russell (1872 – 1970) و"لـودفيج فتجنشتين" Ludwing Wittgenstein (1889 – 1951) [25].

ويمكننا القول – دون الوقوع فى خطأ التعميم – إن الوضعيين المناطقة يتفقون جميعاً على ما يلي :

أ- التمسك بآراء "هيوم" فى السببية والاستقراء .

ب- التأكد على أن قضايا المنطق والرياضة هى تحصيل حاصل .

ج- النظر إلى الفلسفة بوصفها تحليلاً منطقياً .

د- التأكيد على أن مثل هذا التحليل يؤدى إلى استبعاد "الميتافيزيقا"[26].

رودلف كارناب

رأى الوضعيون ضرورة رفض كل محاولة عقلية يراد بهـا تجـاوز التجربة للوصول إلى معرفة مجردة يكون قوامها العقل وحده، ومعنى هذا أنه من المستحيل على الإطلاق – من وجهة نظر الوضعيين المناطقة – إيجـاد أسس علمية لـ "الميتافيزيقا"؛ لأنه إذا كان المقصود بـ "الميتافيزيقا" البحث الذى يتجاوز موضوعه نطاق المعطيات الحسية، فإنه من العبـث أن نطلـق

على مثل هذا البحث اسم "العلم"، وحينما نحاول التعرض لمثل هذا البحث، فإن عقلنا سرعان ما يقودنا إلى مشاكل لا حل لها [27].

وها هو "كارناب" Rudolf Carnap (1891 – 1970) يتوقف عند بعض القضايا الميتافيزيقية التقليدية كالقضية القائلة بأن "ثمة إلهاً"، أو أن "العلة الأولى للعالم هى اللاشعور" أو أن هناك "قوة فاعلية هى المبدأ الموجه لسائر الكائنات الحية" ويرى أن مثل هذه القضايا لا يمكن الزعم بأنها قضايا كاذبة، بل كل ما يريده أن يقوله أنها قضايا فارغة تماماً من المعنى. والسبب فى ذلك أن هذه القضايا الميتافيزيقية ليست قضايا تحليلية، كما أنها – فى الوقت نفسه – لا تقبل التحقيق تجريبياً، فهى لا يمكن أن تكون إلا مجرد "أشباه قضايا" Pseudo-propositions [28].

وقد أكد "كارناب" فى مقاله "استبعاد "الميتافيزيقا" من خلال التحليل المنطقى للغة" The Elimination of Metaphysics Through Logical Analysis of Language أن التحليل المنطقى لـ "الميتافيزيقا" وضمنها كل فلسفة للقيمة، وكل نظرية معيارية، أفضى إلى نتيجة سلبية مفادها أن القضايا المزعومة – فى هذه المجالات – تخلو تماماً من أى معنى؛ ومن ثم لابد من استبعاد "الميتافيزيقا" استبعاداً تاماً [29]. ولذلك صاغ "معيار القابلية للتحقيق" Principle of Verification على النحو التالى:

"ليس فى وسع القضية أن تثبت إلا ما يمكن التحقق منه، ومن ثم إذا كانت العبارة تُستخدم لإثبات شىء ما؛ فإنه لا يمكن استخدامها إلا لإثبات قضية تجريبية فحسب" [30].

ويقسم "كارناب" القضايا التى تحمل معنى إلى ثلاث فئات:

أ- قضايا صادقة بالنسبة لصورتها وحدها، وهذه القضايا – فى رأى

"كارناب" – لا تقول شيئاً عن عالم الواقع، ويدخل ضمن هذه القضايا قواعد المنطق والرياضة .

ب- قضايا تنطوى على تناقض منطقي، وهذه قضايا كاذبة بالنسبة لصورتها .

ج- أما القضايا التى تبقى بعد ذلك، فهى أحكام التجربة التى تتعلق بالعلم التجريبى وقد تكون صادقة أو كاذبة .

وعلى هذا الأساس، يذهب "كارناب" إلى القول بأن القضايا التى لا تنتمى إلى قضايا المنطق والرياضة أو إلى قضايا العلوم التجريبية، هى خلو من كل معنى. وقضايا "الميتافيزيقا" هى – فى نظره – من هذا القبيل.

وجاء "كارل بوبر" Karl Popper (1902 – 1994) وتصدى لمناقشة آراء الوضعيين المناطقة ووجه إليها نقدين أساسيين:

أولها، ضرورة إحلال مبدأ إمكان التكذيب Falsifiability محل مبدأ إمكان التحقق كمعيار للتمييز بين العلم و"الميتافيزيقا". فإذا كانت القضايا التى يمكن التحقق من صدقها هى فقط ذات معنى، فإن أى نقاش حول المعنى؛ يصبح بدوره خالياً من المعنى. وسوف تخلو من المعنى كل المناقشات التى تشرح معايير الوضعيين لتمييز العلم.

وثانيهما، يرى "بوبر" أن "الميتافيزيقا" – وإن اختلفت عن العلم – فهى كذلك لها معنى، كما يمكنها فى بعض الحالات أن تفيد العلم بطريقة إيجابية. إنها تقدم – تبعاً لـ "بوبر" – إطاراً لا غنى عنه يمكن من خلاله تشييد النظريات العلمية ومقارنتها بالتجربة. و"الميتافيزيقا" – بهذا المعنى – تعمل كمرشد أو موجه للعلم [31].

الهوامش

(1) إن لفظ الشك Scepticism إنما يرجع إلى كلمة يونانية معناها البحث والتقصي من أجل الكشف عن الحقيقة. ولكن هذا اللفظ اتخذ مدلولاً اصطلاحياً بعد ذلك، ليشير إلى موقف الإنسان الذى يبحث عن الحقيقة ولم يجدها .

(2) انظر فى ذلك: د. حسين على، ما هى الفلسفة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 135.

(3) د. توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ص 302 .

(4) المرجع السابق، ص ص 258 – 259.

(5) د. محمد فتحي الشنيطى، فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، مكتبة القاهرة الحديثة، 1956، ص 19.

(6) المرجع السابق، ص 4.

انظر أيضاً:

Roger Scruton, A Short History of Modern Philosophy From Descartes to Wittgenstein, Land Second edition, 1995, p. 97.

(7) David Hume, A Treatise of Human Nature, edited by L, A, Selby-Bigge M. A, Oxford at the Clarendon press, 1960, p. I.

انظر كذلك: د. محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص 40.

(8) James Collins, A History of Modern European Philosophy, pp. 410 – 411.

(9) D, Hume, op. cit., p. 3.

(10) Ibid, p. 4.

(11) انظر فى ذلك: د. محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا فى فلسفة هيوم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص 94 .

(12) انظر: د. عبد الرحمن بدوى، **إمانويل كنت**، ص 282 .

(13) يرى "كونت" أن فلسفته الوضعية الجديدة هى آخر مراحل التفكير، وهى الفلسفة التى يطمئن فى ظلها العقل الإنسانى فى دراسته للنظام الكوني العام؛ ولمجموعة التصورات والظواهر الإنسانية .

انظر: د. مصطفى الخشاب، **أوجست كونت**، مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة، 1950، ص ص29 – 30 .

(14) نقلاً عن المرجع السابق، ص 30 .
(15) المرجع السابق، ص 33 .
(16) نقلاً عن د. مصطفى الخشاب، **المرجع السابق**، ص 69 .

انظر أيضاً: **Auguste Comte**, Encyclopedia. Com

http: // www. encyclopedia. com/ doc- aspx? Id = 1E1 comte. Au

(17) نقلاً عن د. مصطفى الخشاب، **المرجع سالف الذكر**، ص 70 .
(18) ترجع بذور قانون الأطوار الثلاثة إلى القرن الثامن عشر عند "كوندرسيه" Condorcet (1743 – 1794) و"ترجو" Turgot (1727 – 1781) ولكن ظهوره بصورة واضحة – وبطريقة فلسفية ومنطقية – إنما ينسب إلى "أوجست كونت" .
(19) نقلاً عن د. مصطفى الخشاب، **مرجع سبق ذكره**، ص ص 70 – 71.
انظر كذلك: ليڤى بريل، **فلسفة أوجست كونت**، ترجمة د. محمود قاسم، ود. السيد محمد بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1952، ص ك من مقدمة الترجمة .
(20) وضعية أوجست كونت

http: // www. Eltwhed. com / vb / showthread. Php ?t = 2586. htmI

(21) د. مصطفى الخشاب، **المرجع السابق**، ص 72 .
(22) عادة ما تُوصف الوضعية المعاصرة بصفات عدة، فقد تُوصف بالوضعية الجديدة New Positivism أو الوضعية المنطقية Logical Positivism أو التجريبية المتسقة Consistent Empiricism أو الوضعية الجديدة المنطقية Logical New Positivism .
راجع فى ذلك: د. محمد مهران ود. محمد مدين، **مقدمة فى الفلسفة المعاصرة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 195.
(23) حول النشأة التاريخية لجماعة ڤيينا انظر كتاب: د. حسين على، **فلسفة العلم عند هانزريشنباخ**، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 37.
(24) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

انظر أيضاً: **Logical Positivism**

http: // www. philosophypages. com / hy 16 quhtm.

(25) د. محمد مهران ود. محمد مدين، **المرجع سالف الذكر**، ص 197 .
قارن كذلك: د. عزمي إسلام، **اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة**، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980، ص 112 .

(26) د. حسين على، **الميتافيزيقا والعلم**، ص 65.
(27) المرجع السابق، ص 66 .
(28) د. زكريا إبراهيم، **دراسات فى الفلسفة المعاصرة**، مكتبة مصر، القاهرة، 1987، ص 272.
(29) د. حسين على، **المرجع سالف الذكر**، ص 67 .
(30) المرجع السابق، الصفحة نفسها .
(31) المرجع السابق، ص 93 .

* * * * *